

العنكبوت بين القرآن والعلم الحديث (دراسة تحليلية)

م. بكر حسين علوان
قسم علوم القرآن، كلية الآمام الأعظم الجامعة، العراق

الملخص

تتجلى قيمة هذا البحث الموسوم بـ "العنكبوت بين القرآن والعلم الحديث" دراسة تحليلية في دراسة المثل القرآني في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾، بوصفه نموذجاً قرآنياً ذا دقة بالغة في بنائه اللغوي، وثرائه الدلالي، وعمقه العقدي، وما ينطوي عليه من أبعاد علمية تكشف عن إحكام النظم القرآني لغة ودلالة.

وقد سعى هذا البحث إلى بيان ما ينطوي عليه المثل من أبعاد علمية تكشف عن إحكام النظم القرآني لغة ودلالة وصولاً إلى فهم علمي رصين للمثل القرآني، قائم على الانضباط المنهجي، ومتحرر من الإفراط في التأويل أو التكلف في التوظيف (توظيف المعطيات العلمية)، وتتبع أهمية تلك الدراسة من أنها تجاوزت بيان المعنى التفسيري للآية، لتصل إلى الكشف عن البنية الدلالية لمفهوم "الوهن"، وتحليل العلاقة بين الأنساق البيانية والحقائق البيولوجية العلمية، بما يبرز تناهي دقة النظم القرآني، ومواكبته لما يتجدد كشفه كلما اتسعت آفاق المعرفة الإنسانية؛ فضلاً عن تقديم معالجة أصولية علمية منضبطة للشبهات المثارة حول هذا المثل.

الكلمات المفتاحية: العنكبوت، القرآن الكريم، العلم الحديث.

The Spider Between the Qur'an and Modern Science

(An Analytical Study)

Bakr Hussein Alwan

Department of Quranic Sciences, Imam Al-Azam University College, Iraq

ABSTRACT

The value of this research, entitled "The Spider Between the Quran and Modern Science: An Analytical Study," lies in its examination of the Quranic parable in the verse: {The parable of those who take protectors other than Allah is that of the spider, who builds a house; and indeed, the weakest of houses is the house of the spider.} (Quran 2:172). This parable serves as a Quranic model of remarkable precision in its linguistic structure, semantic richness, doctrinal depth, and the scientific dimensions it embodies, revealing the mastery of the Quranic system in both language and meaning. This research aims to elucidate the scientific dimensions of this parable, revealing the mastery of the Quranic system in both language and meaning, ultimately leading to a sound scientific understanding of the Quranic parable. Based on methodological rigor and free from excessive interpretation or contrived application (of scientific data), the importance of this study stems from its transcendence of merely explaining the interpretive meaning of the verse. It delves into the semantic structure of the concept of "weakness" and analyzes the relationship between the linguistic patterns and scientific biological facts, thus highlighting the exquisite precision of the Quranic system and its ability to keep pace with the ever-evolving discoveries as the horizons of human knowledge expand. Furthermore, it offers a rigorous, scientifically sound treatment of the doubts raised about this parable.

Keywords: Spider, Holy Quran, Modern Science.

المقدمة

الحمد لله الربّ الجليل الأعلى؛ خلق المخلوقات فسوّى، وقدر أقدارها فهدى، رفع بغير عمد السموات العلا، وجعل في الأرض من صغائر خلقه آيات كبرى؛ لتكون دليلاً لمن أرشد وهدى؛ القائل في تنزيل حكيم يُتلى سمح سُرِّيهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، والصلاة والسلام على المبعوث بالحق والهدى، ودعا المؤمنين لتكون لهم البشرى؛ فصلاة وسلاماً عليه صاحب أطر الذكرى، وعلى آل بيته نباريس المدائن والقرى، وعلى صحبه الأطهار ذوي السيرة الزهري؛ أما بعد:

فإن القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة التي لا تنقضي عجائبه، وقد سلك القرآن الكريم في خطاب العقل البشري ومسالك شتى، فضرب الأمثال بالكائنات الحية والحيوانات والحشرات الصغرى؛ لتقريب المعاني المعقولة وتجسيدها في صور مشهودة، ومن بين تلك الكائنات "العنكبوت"، التي خصّها القرآن بسورة كاملة تحمل اسمها، وضرب ببيتها المثل في الوهن والضعف، فقال تعالى **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**

أولاً: أهمية الموضوع:

وتتجلى أهمية ذلك الموضوع في الآتي:

- 1- كشف أبعاد المثل القرآني، وتحليل الألفاظ الدقيقة التي استعملها القرآن، والوقوف على أسرارها البلاغية والتشريعية، وذلك من الناحية العقدية والتفسيرية.
- 2- إبراز التوافق والدلالة القطعية بين النص القرآني، وما وصلت إليه العلوم البيولوجية والتشريحية الحديثة في القرن الحادي والعشرين حول سلوك العناكب وحياتها الاجتماعية والفيزيائية.
- 3- الرد العلمي الرصين على الشبهات والمطاعن التي قد أثارها بعض المستشرقين أو الملاحدة حول الأمثال القرآنية، وبيان أن ما وصفه القرآن بالوهن منذ قرون هو حقيقة علمية واجتماعية مطلقة.

ثانياً: أسباب اختيار الموضوع:

يعود اختيار هذا الموضوع إلى عدة دوافع علمية ومنهجية، وهي:

- 1- الرغبة في إبراز أوجه الإعجاز العلمي والبياني في آية العنكبوت بأسلوب تحليلي يربط بين دلالات الألفاظ وحقائق العلوم.
- 2- الحاجة إلى دراسة تجمع وتغربل الأقوال التفسيرية القديمة والحديثة في الآية المعنية، ومقارنتها بالحقائق البيولوجية المعاصرة، لتجنب التكلف في التفسير العلمي.
- 3- الندرة النسبية في تلك الدراسات الأكاديمية الفقهاء والتحليلية التي تُفرد "العنكبوت" بدراسة مستقلة تجمع بين اللغة والتفسير وعلم الحيوان الحديث في آن واحد.

ثالثاً: إشكالية الدراسة:

تتمثل إشكالية تلك الدراسة في أنه ضرب المثل بـ "بيت العنكبوت" ووُصِفَ بـ "الوهن" في القرآن الكريم، وقد يتبادر إلى الفهم البدائي أنه وهن مادي محض (ضعف الخيوط)، في حين أن العلم الحديث أثبت أن خيط العنكبوت من أقوى المواد الطبيعية على وجه تلك البسيطة، ومن هنا تبرز الإشكالية المعرفية في كيفية التوفيق والتحليل المنهجي لـ "الوهن" المذكور في الآية، وهل هو وهن مادي، أم وهن معنوي (اجتماعي وأسري)، أم عقدي (وهن المعبودات من دون الله تعالى)؟ وكيف تتضافر تلك المعاني اللغوية مع الكشف العلمية الحديثة لتجلي هذا الإعجاز الباهر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؟

رابعاً: أسئلة البحث

تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عن بعض السؤال الرئيس: ما أبعاد دلالة "العنكبوت" في القرآن الكريم بيانياً وعلمياً؟ ويتفرع عنه الأسئلة الآتية:

- 1- ما الدلالات اللغوية والسياقية لذكر "العنكبوت" وبيتها في سورة "العنكبوت"؟
- 2- كيف وجّه المفسرون (المتقدمون منهم والمتأخرون) مفهوم "الوهن" في بيت العنكبوت؟

- 3- ما الحقائق العلمية والبيولوجية الحديثة المتعلقة بـ (بناء البيت، وخيوط العنكبوت، والعلاقات الأسرية داخل مجتمع العناكب)؟
- 4- كيف يتطابق التعبير القرآني بصيغة التأنيث {أَتَّخَذْتُ} مع الحقائق العلمية الحديثة؟

خامساً: أهداف البحث:

- يهدف هذا البحث إلى تحقيق الغايات والأهداف الآتية:
- 1- استجلاء الأسرار اللغوية والبلاغية في استخدام الألفاظ والضمائر في آية العنكبوت.
 - 2- تتبع وتصنيف أقوال المفسرين في الآية وتحليلها تحليلًا نقدياً مقارنةً.
 - 3- عرض حقائق علم الأحياء الحديث (Arachnology) المتعلقة بالعنكبوت ومقارنتها بالنص القرآني لبيان أوجه الإعجاز.
 - 4- إثبات أن الوهن في بيت العنكبوت يشمل الوهن المادي (من منظور الحماية)، والوهن الاجتماعي (اقتراس الأنثى للذكر والأبناء لبعضهم)، وهو ما يطابق حال المشاركين مع معبوداتهم، ومع بعضهم.

سادساً: الدراسات السابقة:

- بعد البحث والاطلاع، تبين وجود جهود علمية تناولت الإعجاز العلمي في القرآن، ومنها:
- 1- الإعجاز العلمي في أمثال القرآن "دراسة تحليلية موضوعية"، ماجستير، براءة عبد الله سلمان العوضي، إشراف: د. لبنى عبد العزيز محمد، كلية أصول الدين، جامعة أم درمان الإسلامية، أم درمان، السودان.
 - 2- الآيات المتعلقة بالحشرات في القرآن الكريم "دراسة تحليلية"، عبد الله إبراهيم رحيب الهيتي، كلية العلوم الإسلامية، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية، جامعة الأنبار، العراق، 2015م.
 - 3- الحشرات في القرآن الكريم والإعجاز العلمي، د. ثروت مهران، (د. ط)، (د. ت).
 - 4- الدعوة إلى الله من خلال علم الحشرات في القرآن، ناصر أحمد حمد، دكتوراة، إشراف: مبارك محمد أحمد رحمة، معهد بحوث ودراسات العالم الإسلامي، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان.
 - 5- المعجزة الخالدة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم "براهين ساطعة وأدلة قاطعة"، علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة، (د. ط)، (د. ت).
 - 6- من ملامح الإعجاز العلمي للحشرات في سور (النحل، والنمل، والعنكبوت) "دراسة استقرائية تطبيقية"، د. دينا سامي حسن أحمد، قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، الزقازيق، جامعة الأزهر، مصر.
- ومعظم تلك الدراسات والمؤلفات تناولت آية العنكبوت كجزء من سياق عشرات الآيات أو الأمثال دون تشريح مفصل للحقائق البيولوجية الحديثة للعنكبوت، وتمتاز تلك الدراسة عن غيرها بأنها تفرد "العنكبوت" كأطروحة أحادية (Monograph)، تركز على "الدراسة التحليلية" التي تقارن بدقة بين لغة التفسير وأحدث الأوراق العلمية الصادرة في علم الحيوان وسلوكياته؛ فضلاً عن علم المواد (فيما يتعلق بمتانة الخيوط والوهن البنيوي والأسري)، وهو ما لم تجمع دراسة مستقلة بهذا الشمول، وتلك الإحاطة.

سابعاً: منهج البحث:

- تعتمد الدراسة على المناهج العلمية الآتية:
- 1- المنهج الاستقرائي: بتتبع الآيات والآثار والنصوص التفسيرية، وكذا استقراء المعطيات العلمية والبيولوجية الثابتة عن العنكبوت.
 - 2- المنهج التحليلي: بتحليل الألفاظ اللغوية وسياق الآيات، وتفكيك مدلول "الوهن" ومقارنته بالتحليلات المخبرية والبيئية الحديثة لحياة العنكبوت.
 - 3- المنهج المقارن: بالمقارنة والمطابقة بين ما قرره المفسرون قديماً وبين ما أثبتته العلم الحديث، لبيان التوافق ووجوه الإعجاز دون تكلف.

ثامناً: خطة الدراسة المقترحة:

تقتضي طبيعة البحث تقسيمها إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، على النحو الآتي:

التمهيد: المدخل الدلالي والسياقي لسورة العنكبوت.

المطلب الأول: أسماء السورة ومحورها العقدي.

المطلب الثاني: دلالة لفظ "العنكبوت".

المبحث الأول: العنكبوت في التفسير والمأثور (دراسة تحليلية)، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: سياق الآية (41) من سورة العنكبوت وأسباب نزولها.

المطلب الثاني: أقوال المفسرين المتقدمين في دلالة {أَوْهَنَ الْبُيُوتِ}.

المطلب الثالث: توجيه المتأخرين والمعاصرين للمثل القرآني.

المبحث الثاني: العنكبوت في العلم الحديث (حقائق بيولوجية وسلوكية)، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: السر العلمي في التأنيث {أَنْتَحَذُ} (غدد الحرير والمسئولية عن بناء الأعشاش).

المطلب الثاني: الخواص الفيزيائية والميكانيكية لخيوط العنكبوت (بين قوة المادة ووهن البناء).

المطلب الثالث: المنظومة الاجتماعية والأسرية للعنكبوت (ظاهرة افتراس الأقارب وحقيقة الوهن الأسري).

المبحث الثالث: أوجه الإعجاز والترابط بين النص والعلم، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: حقيقة "الوهن" في المنظورين: التفسيري والعلمي (الوهن الحسي والمعنوي).

المطلب الثاني: وجه التشابه بين متخذي الأولياء من دون الله وبيت العنكبوت اجتماعياً ومادياً.

المطلب الثالث: الأبعاد التربوية والعقدية المستفادة من المثل.

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والتوصيات.

الفهارس: وفيها المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

وأسأل الله التوفيق والسداد والرشاد.

التمهيد

المدخل الدلالي والسياقي لسورة العنكبوت

المطلب الأول: أسماء السورة ومحورها العقدي

سورة العنكبوت ترتيبها التاسع والعشرون في المصحف الشريف، وهي سورة مكية إلا بعض آياتها، وقال قتادة: من أول العنكبوت إلى قوله عز وجل **سَمِحَ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ** ⁽¹⁾ مدني، وباقيها مكِّي. ⁽²⁾، وعدد آياتها تسع وستون بالاتفاق إلا الحمصي، فقد نقل عنه أنها سبعون آية ⁽³⁾، وكلماتها تسعمائة وثمانون، وحروفها أربعة آلاف ومائة وخمس وتسعون ⁽⁴⁾.

(1) سورة العنكبوت: 11.

(2) جمال القراء وكمال الإقراء، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري، علم الدين السخاوي (ت: 643هـ)، تج: عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1419هـ-1999م، 1/ 133.

(3) حسن المدد في معرفة فن العدد، برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري (ت: 732هـ)، تج: بشير بن حسن الحميري، المدينة المنورة، ط1، 1431هـ، ص 392.

(4) ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت: 817هـ)، تج: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، (د. ط)، (د. ت)، ص 252.

أسماء السورة الكريمة:

اسمها التوقيفي العنكبوت، واسمها الاجتهادي هو سورة سمح الم * أَحْسِبَ النَّاسُ⁽¹⁾، و"كَانَ الْمُشْرِكُونَ إِذَا سَمِعُوا تُسَمَّى سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَسُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ يَسْتَهْزِئُونَ بِهِمَا، أَيُّ بِهِمَا الْإِضَافَةُ فَتَزَلْ قَوْلُهُ تَعَالَى سَمَحَ إِنَّا كَفِينَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ"⁽²⁾، وَوَجْهٌ إِطْلَاقٌ هَذَا الْإِسْمِ عَلَى هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّهَا اخْتُصَّتْ بِذِكْرِ مَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ"⁽³⁾. محور السورة العقدي:

المحور العقدي الحاكم لسورة العنكبوت يتلاقى مع قوله الله سَمَحَ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ⁽⁴⁾؛ فمرتكزها حقيقة الإيمان والتمحيص؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، وينماز الصادقون المخلصون من الكاذبين المنافقين، وهذا المحور الرئيس يدور في فلكه أبعاد ثلاث:

الأول: سُنَّةُ التَّمَحِيصِ الْإِلَهِيِّ لِلْخَلْقِ: انطلاقاً من قوله تعالى سَمَحَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ⁽⁵⁾؛ فَالْعَقِيدَةُ وَالْإِبْتِلَاءُ صَنَوَانٌ، أَوْ وَجْهَانِ لَعَمَلَةٍ وَاحِدَةٍ لَا يَسْتَقِيمُ أَحَدُهُمَا إِلَّا بِالْآخَرِ؛ فَالْإِبْتِلَاءُ هُوَ الَّذِي يَصْهَرُ الْعَقِيدَةُ فَيُخْرِجُ خَبِيثَهَا، وَيَنْفِي عَنْهَا الْأَدْرَانَ وَالْأَرْجَاسَ⁽⁶⁾.

الثاني: وَهْنُ الشَّرِكِ وَهْشَاشَةُ الْمَعْبُودَاتِ مِنْ دُونِ اللَّهِ: فكل من يبتغي النصر، أو العزة، أو الحماية من المشركين، أو الطواغيت، أو الأسباب المادية مجردة عن مسببها الحقيقي فإن عقيدته هشة هشاشة بيت العنكبوت؛ "فقوة الله وحدها هي القوة، وولاية الله وحدها هي الولاية، وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل مهما علا واستطال، ومهما تجبر وطغى، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل"⁽⁷⁾.

الثالث: الصراع الأزلي بين الإيمان والكفر: عبر موكب الأنبياء (نوح، إبراهيم، لوط، شعيب، هود، صالح، موسى) (عليهم السلام) لتبين وحدة العقيدة في دعوة الأنبياء، وهي التوحيد الخالص، واجتتاب الطواغوت، وحتمية النصر للفئة المؤمنة، وعاقبة الخسران المبين والهلاك اليقين للمكذبين الضالين.

وصفوة القول أن المحور العقدي في سورة العنكبوت هدفه ترسيخ البنية النفسية، وتقوية العقيدة الإيمانية عبر إدراك المؤمن أن الابتلاء قدر مقدور، والركون إلى الله وحده هو القوة الحقيقية، وأن اليقين هو المرتكز الأساس؛ والركون إلى الباطل وزيف الشرك مصيره الزوال والاضمحلال كبيت العنكبوت.

المطلب الثاني: دلالة لفظ "العنكبوت"

(الْعَنْكَبُوتُ) دويبة تنتمي إلى فئة من اللافقاريات تُعرف باسم Arthropods، وهي تشمل أنواعاً كثيرة تختلف حجماً ولونا ونوعية الإيذاء الذي تلحقه بالإنسان، أما الرتبة التي تنتسب لها العناكب فهي رتبة الأراكني arachnids، ولقد تم تحديد أكثر من أربعة آلاف نوع منها حتى الآن⁽⁸⁾؛ فالعناكب بصفة عامة باستثناء مجموعتين صغيرتين لديها غدد سامة تطلق إفرازاتها في أكياس للسم بالقرب من مخالباتهن⁽⁹⁾.

ومع ذلك فإن أغلب العناكب -باستثناء أنواع قليلة- لا تلدغ البشر، ولذا فهي ليست ضارة للإنسان أو للثدييات الأخرى، والأعراض الناتجة عن لدغات العناكب خفيفة تعالج إذا تم تداركها، ويوجد نوع واحد عدواني واحد

(1) جمال القراء وكمال الإقراء، علم الدين السخاوي، 1/ 200.

(2) سورة الحجر: آية 95.

(3) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: 1393هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984هـ، 199/20.

(4) سورة آل عمران: آية 142.

(5) سورة آل عمران: آية 141.

(6) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم (ت: 1966م)، دار الشروق، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، 2722-2720/5.

(7) المصدر السابق نفسه، 2737/5.

(8) Rahmani, F., & Others, Poisonous Spiders: Bites, Symptoms, and Treatment; an Educational Review, Emergency; 2 (2), 2014, P.54.

(9) Coiddington, J.A., & Others, "Arachnida", in: Crafat, J., & MJ Donoghue, MJ., (Eds), Assembling the tree of life, Oxford, 2004, p.302.

اسمه web-funnel يوجد في أستراليا يهاجم الإنسان بشراسة، وتم العثور على أنواع أخرى من العناكب السامة في أمريكا اللاتينية⁽¹⁾.

العنكبوت تشريحياً:

العنكبوت من ناحية التشريح فتختلف أنواعها فيما بينها اختلافا كبيرا شكلا وتكويناً، ولكنها كلها تتميز بأربعة أزواج من الأرجل غير المندمجة في البطن، وينقسم جسم العنكبوت إلى منطقتين، منطقة الرأس مع الصدر لأنهما مندمجان، ثم منطقة البطن وهو منتفخ كبير الحجم، وليس للرأس قرون استشعار، وللفم جهاز مضغ قوي يتكون من فكين في أعلى وفكين في أسفل، وهي على شكل أسنان أو خطاطيف مجوفة متصلة بغدد سامة تقتل الفريسة أو تشل حركتها، عيونها صغيرة وتختلف أعدادها ما بين ثمانية أعين واثنى عشرة، والعيون موزعة فوق منطقة الرأس، وليس للعناكب أجنحة، وهي تنفس بأكياس هوائية⁽²⁾.

وقد صنف العلماء العناكب خارج طائفة الحشرات وإن كانت تشترك مع الحشرات في كثير من الخصائص العامة؛ إلا أن العناكب من ذوات الثمانية أرجل، وليس لها قرون استشعار، ولا أجنحة والرأس، والصدر ملتصقان⁽³⁾.

و(العنكبوت) دويبة معروفة تنسج من لعبها خيوطاً، وتصيد بذلك النسيج طعامها، والجمع: عناكب وعنكبوتات، والعنكب ذكرها، والجمع: عناكب وعناكيب، والعنكة والعنكبة والعنكبة أنثاها، والجمع: عناكب وعناكيب؛ قال ابن يعيش في شرح المفصل في فصل [زيادة حرفين مجتمعين]: "ومن ذلك (فعللوت) قالوا: عنكبوت وتخربوت، ولم يأت صفة؛ فالعنكبوت معروفة، وهي دويبة تنسج لها بيوتاً من خيوط واهية، والتخربوت الناقة الفارهة، والواو والتاء في آخرهما زائدتان؛ زيда في آخر الرباعي؛ كما زيدا في آخر الثلاثي من نحو: ملكوت ورهبوت"⁽⁴⁾.

المبحث الأول

العنكبوت في التفسير والمأثور (دراسة تحليلية)

المطلب الأول

سياق الآية (41) من سورة العنكبوت وأسباب نزولها

أولاً: الآية القرآنية الكريمة:

قال الله تعالى سَمِحْ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ⁽⁵⁾

ثانياً: سياق الآية القرآنية الكريمة:

الآية الكريمة وردت في سياق أعقب جولات تاريخية، وصدامات عقدية، ومجادلات كلامية، وصراعات نفسية، وتهديدات كيدية عبر حقب زمنية طويلة لأمم متنوعة الأزمنة، مختلفة الأمكنة، متعددة الأنبياء والرسول، متفردة الدعوة والرسالة، متوحدة الختام والنهاية، متغايرة صور الهلاك والنكابة؛ كقوم نوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وعاد، وثمود، وقارون، وفرعون، وهامان، وجاء هذا البيان مقروناً ببيان عواقب هؤلاء الطغاة المتباينة ذات الآثار الأليمة، والمصارع المخيفة، والنهايات المبيدة.

(1) Rahmani, F., & Others, Poisonous Spiders, P.54.

(2) العناكب: أنواعها وأسرارها، إبراهيم محمد أنور، مجلة التربية، العدد: 82، 1986م، ص112.

(3) ينظر: من عجائب الخلق في عالم الحشرات، محمد إسماعيل الجاويش، القاهرة، 2012م، ص88.

(4) شرح المفصل للزمخشري، يعش بن علي بن يعش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، المعروف بابن يعيش (ت: 643هـ)، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ-2001م، 199/4.

(5) سورة العنكبوت: آية41.

فبعد أن فصلت السورة الكريمة كيف استقبل هؤلاء دعوة الأنبياء بالعناد والاستكبار، وظنوا أن أموالهم وحصولهم وجنودهم وأوتادهم قلاع تحميهم من نكال الله وعقابه، وختم الله قصصهم ببيان مصيرهم الحتمي، وإعلان القوى العلوية حكمها في قوله تعالى **سَمَحَ فُكْلًا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّبْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**⁽¹⁾، وتعقيباً على هذا المشهد الرهيب لتهوي القوى الطاغوتية الأرضية جاءت آية العنكبوت لتلخص القيمة الحقيقية لكل تلك القوى التي اعتمدوا عليها، فصورتها في غاية الضعف والوهن، وفي قمة حماقة والطيش فجاء التشبيه ببيت العنكبوت سخريه واستهزاء بهم.

ثالثاً: سبب نزول الآية القرآنية الكريمة:

لم يقف أئمة النقل على سبب نزول خاص بالآية، وإنما سببها العام هو الاعتبار بحال مشركي مكة وتعلقهم بالأوثان، يقول ابن كثير: **"هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، يَرْجُونَ نَصْرَهُمْ وَرِزْقَهُمْ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِهِمْ فِي الشَّدَائِدِ، فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ فِي ضَعْفِهِ وَوَهْنِهِ، فَلَيْسَ فِي أَيْدِي هَؤُلَاءِ مِنْ إِلَهِهِمْ إِلَّا كَمَنْ يَتَمَسَّكُ بِبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، فَإِنَّهُ لَا يُجِدِي عَنْهُ شَيْئًا"**⁽²⁾.

المطلب الثاني

أقوال المفسرين المتقدمين في دلالة {أَوْهَنَ الْبُيُوتِ}

تكاد أقوال المفسرين تتشابه في تأويل تلك الآية الكريمة، والدليل على ذلك قول القرطبي: **"قَالَ الْفَرَاءُ: هُوَ مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِمَنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا تَنْفَعُهُ وَلَا تَضُرُّهُ، كَمَا أَنَّ بَيْتَ الْعَنْكَبُوتِ لَا يَبْقِيهَا حَرًّا وَلَا بَرْدًا. وَلَا يَحْسُنُ الْوَقْفُ عَلَى الْعَنْكَبُوتِ، لِأَنَّهُ لَمَّا قَصَدَ بِالتَّشْبِيهِ لِبَيْتِهَا الَّذِي لَا يَبْقِيهَا مِنْ شَيْءٍ، فَشَبَّهَتْ الْإِلَهَةُ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ بِهِ"**⁽³⁾.

السمرقندي: **"يعني مثل عبادتهم الأصنام في الضعف وقلة نفعهم إياهم"** كمثال العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت؛ يعني: أضعف البيوت، **"البيت العنكبوت"**؛ لأنه لا يغني من حر ولا من برد ولا من مطر، وكذلك آلهتهم لا يدفعون عنهم ضرراً، ولا يقدر لهم نفعاً⁽⁴⁾، ويقول الزمخشري: **"الغرض تشبيه ما اتخذوه متكللاً ومعتمداً في دينهم وتولوه من دون الله، بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوة، وهو نسج العنكبوت؛ ألا ترى إلى مقطع التشبيه وهو قوله وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ؟"**⁽⁵⁾.

القشيري: **"العنكبوت يتخذ لنفسه بيتاً، ولكن كلما زاد نسجاً في بيته ازداد بعداً في الخروج منه فهو يبنى، ولكن على نفسه يبنى... كذلك الكافر يسعى، ولكن على نفسه يبنى، وبيت العنكبوت أكثره في الزوايا من الجدران، كذلك الكافر أمره على التقية والكتمان، وأما المؤمن فظاهر المعاملة، لا يستتر، ولا يدخس، وبيت العنكبوت أوهن البيوت؛ لأنه بلا أساس، ولا جدران، ولا سقف، ولا يمسك على أدون دفع... كذلك الكافر لا أصل لشأنه، ولا أساس لبنائه؛ يرى شيئاً، ولكن بالتخييل"**⁽⁶⁾.

(1) سورة العنكبوت: آية 40.

(2) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت: 774هـ)، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ-1999م، 279/6.

(3) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي (ت: 671هـ)، تح: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ-1964م، 345/13.

(4) بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي (ت: 373هـ)، تح: د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، (د. ط)، (د. ت)، 634/2.

(5) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت: 538هـ)، دار الكتاب العرب، بيروت، (د. ط)، 1407هـ، 454/3.

(6) لطائف الإشارات، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: 465هـ)، تح: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط3، (د. ت)، 98-97/3.

ويلاحظ مما سبق أن علماءنا الأجلاء ركّزوا على المعنى اللغوي لكلمة "أوهن" التي تحمل معنى الوهن والضعف والخور، ولعلنا نلاحظ استعمال النظم القرآني لتلك الكلمة دون غيرها كأضعف مثلاً؛ يقول العسكري: "قيل: الضَّعْفُ ضِدُّ الْقُوَّةِ، وَالْوَهْنُ: هُوَ أَنْ يَفْعَلَ الْإِنْسَانُ فِعْلَ الضَّعِيفِ، تَقُولُ: وَهَنَ فِي الْأَمْرِ يَهِنُ وَهْنًا، وَهُوَ وَاهِنٌ: إِذَا أَخَذَ فِيهِ أَخَذَ الضَّعِيفُ؛ لَذَا لَا يُقَالُ: خَلَقَهُ اللَّهُ وَاهِنًا، كَمَا يُقَالُ: خَلَقَهُ اللَّهُ ضَعِيفًا، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ الضَّعْفُ مَكَانَ الْوَهْنِ، وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْوَهْنَ هُوَ انْكِسَارُ الْجَسَدِ بِالْخَوْفِ وَنَحْوِهِ، وَالضَّعْفُ نَقْصَانُ الْقُوَّةِ، وَأَمَّا الْإِسْتِكْنَةُ فَقِيلَ: هِيَ إِظْهَارُ الضَّعْفِ"⁽¹⁾.

وبناء على ذلك يمكن القول بأن الوهن أعم من الضعف؛ إذ الضعف في القوة والجوانب الظاهرة، وأما الوهن فيشمل الظاهر والباطن من ظواهر الفتور والخور مصداقاً لقوله تعالى سَمِحَ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي⁽²⁾، ولذا كان اسم التفضيل "أوهن" أدق في التعبير إذ يشمل الضعف المادي والمعنوي كليهما.

المطلب الثالث توجيه المتأخرين والمعاصرين للمثل القرآني

أضاف المتأخرون والمعاصرون من المفسرين أبعاداً توسعية أخرى؛ فنجد مثلاً ابن عاشور يقول: "وَجُمْلَةُ وَإِنَّ أَوْهَنَ النَّبِيِّاتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ مُعْتَرِضَةً مُبَيَّنَّةٌ وَجْهَ الشَّبَهِ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ تَجْرِي مَجْرَى الْمَثَلِ، فَيُضْرَبُ لِقَلَّةِ جَدْوَى شَيْءٍ، فَافْتَضَى ذَلِكَ أَنَّ الْأَدْيَانَ الَّتِي يَغْبُذُ أَهْلُهَا غَيْرَ اللَّهِ هِيَ أَخْفَرُ الدِّيَانَاتِ وَأَبْعَدُهَا عَنِ الْخَيْرِ وَالرُّشْدِ، وَإِنْ كَانَتْ مُتَقَاوِمَةً فِيمَا يَغْرُضُ لِنَتِجَةِ الْعِبَادَاتِ مِنَ الضَّلَالَاتِ كَمَا تَتَقَاوَمُ بَيُوتُ الْعَنْكَبُوتِ فِي غَلْظِهَا بِحَسَبِ تَقَاوُتِ الدُّوَابِّ الَّتِي تَنْسُجُهَا فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ"⁽³⁾، وهكذا يكون ابن عاشور قد وسّع بذلك المعنى من خصوص (الأصنام) إلى عموم (كل معبود من دون الله).

يقول الدكتور زغول النجار: "إن بيت العنكبوت هو من الناحية المادية البحتة أضعف بيت علي الإطلاق؛ لأنه مكون من مجموعة خيوط حريرية غاية في الدقة تشابك، مع بعضها البعض تاركة مسافات بينية كبيرة في أغلب الأحيان، ولذلك فهي لا تقي حرار شمس، ولا زمهرير برد، ولا تحدث ظلاً كافياً، ولا تقي من مطر هائل، ولا من رياح عاصفة، ولا من أخطار المهاجمين، وذلك على الرغم من الإعجاز في بنائها، فخيوط بيت العنكبوت حريرية دقيقة جداً، يبلغ سمك الواحدة منها في المتوسط واحداً من المليون من البوصة المربعة، أو جزءاً من أربعة آلاف جزء من سمك الشعرة العادية في رأس الإنسان، وهي على الرغم من دقتها الشديدة أقوى خمس مرات من نظيرها من الصلب، وتتميز بمقاومة للشد أكبر من مثيلاتها من الصلب سواء نسبت تلك المقاومة لوحدة الحجم أو لوحدة الوزن من الخيط المختبر، بل إن الدراسات الحديثة قد أثبتت أن الخيط من حرير عنكبوت من نوع نيفلا (Nephila) وهو من مجموعة الحائك الدوار (Orbweaver) يُعَدُّ أقوى ثلاث مرات من مثيله المصنوع من المادة المعروفة باسم كيفلار (Kevlar)، وهي مادة ذات أساس بترولي تستخدم في صناعة الصديرية الواقية من طلقات الرصاص؛ لذلك يُعَدُّ حرير العنكبوت واحداً من أقوى المواد الموجودة على سطح الأرض؛ لأنه يتحمل شداً يصل إلى 42000 كيلو جرام على السنتيمتر المربع مما يكسبه قابلية هائلة للمط (Stretching)، وأعطاه قدرة على الإيقاع بالفريسة من الحشرات دون أن يتمزق، خاصة وأن العنكبوت يبني بيته من صفائر تضم الواحدة منها عدداً من هذه الخيوط المضفرة، والمجدولة تجديلاً قوياً، ولذلك قال ربنا (تبارك وتعالى) أوهن البيوت، ولم يقل أوهن الخيوط، وبقي بيت العنكبوت هو أوهن البيوت وأضعفها على الإطلاق، على الرغم من شدة خيوطه"⁽⁴⁾.

(1) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو 395هـ)، تج: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، مؤسسة النشر الإسلامي، ط1، 1412هـ، ص330.

(2) سورة مريم: آية4.

(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 253/20.

(4) من آيات الإعجاز العلمي "الحيوان في القرآن الكريم"، د. زغول راغب محمد النجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ-2006م، ص141-142.

وهكذا نرى الدكتور زغلول قد أوضح بجلاء دقة القرآن الكريم في استعمال (أوهن البيوت) دون (أوهن الخيوط)، وفي ذلك ردّ قاطع، ودليل مخرس لأسنة المستشرقين الذين يثيرون بين الفينة والفينة البشطات حول القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

إن بيت العنكبوت من الناحية المعنوية هو أوهن بيت علي الإطلاق لأنه بيت محروم من معاني المودة والرحمة التي يقوم علي أساسها كل بيت سعيد، وذلك لأن الأنثى في بعض أنواع العنكبوت تقضي علي ذكرها بمجرد إتمام عملية الإخصاب وذلك بقتله واقتراس جسده لأنها أكبر حجماً وأكثر شراسة منه، وفي بعض الحالات تلتهم الأنثى صغارها دون أدنى رحمة، وفي بعض الأنواع تموت الأنثى بعد إتمام إخصاب بيضها الذي عادة ما تحتضنه في كيس من الحرير، وعندما يفقس البيض تخرج Spiderlings، فتجد نفسها في مكان شديد الازدحام بالأفراد داخل كيس البيض، فيبدأ الإخوة الأشقاء في الاقتتال من أجل الطعام أو من أجل المكان أو من أجلهما معا فيقتل الأخ أخاه وأخته، وتقتل الأخت أختها وأخاها حتي تنتهي المعركة ببقاء عدد قليل من العنكبوتات التي تنسلخ من جلدتها، وتمزق جدار كيس البيض لتخرج الواحدة تلو الأخرى، والواحد تلو الآخر بذكريات تعيسه، لينتشر الجميع في البيئة المحيطة، وتبدأ كل أنثى في بناء بيتها، ويهلك في الطريق إلى ذلك من يهلك من هذه العنكبوتات، ويكرر من ينجو منها نفس المأساة التي تجعل من بيت العنكبوت أكثر البيوت شراسة ووحشية، وانعداماً لأواصر القربى، ومن هنا ضرب الله تعالى به المثل في الوهن والضعف لافتقاره إلي أبسط معاني التراحم بين الزوج وزوجه، والأم وصغارها، والأخ وشقيقه وشقيقته، والأخت وأختها وأخيها⁽¹⁾.

فالحياة الأسرية -إذن- داخل هذا الجنس من المخلوقات قائمة على التخريب والدموية، والقتل والافتراس، والغدر والخيانة من اللحظة الأولى لعملية التعارف بين الذكر والأنثى، ذكر يخرب العش الذي بنته الأنثى، وأنثى تقترب الزوج بعد التلقيح مباشرة، وصغار أشقاء يقترب بعضهم بعضاً بعد خروجهم إلى الحياة مباشرة، وقبل انطلاقهم من الكيس الحريري الذي احتفظت فيه الأم ببيضها، ثم يخوضون غمار الحياة مشردين بعد تجربة تعيسة قطعوا بها كل أواصر القرابة والمودة؛ فلا راحة ولا استقرار في حياة هذا المخلوق؛ علاوة على ضعفه وحقارته، وهكذا ففوة الباطل في ذاتها واهية واهنة، مهما بدت قوية قادرة مهيمنة.

وهكذا نجد الدكتور زغلول قد أضاف بُعداً معنوياً واجتماعياً جديداً وطريفاً لم يُعرف عند المتقدمين، وهو ضعف الروابط الأسرية داخل "بيت" العنكبوت (افتراس الأنثى للذكر، وتناحر الصغار)، فأروا أن الوهن حسي ومعنوي معاً.

المبحث الثاني

العنكبوت في العلم الحديث (حقائق بيولوجية وسلوكية)

المطلب الأول السر العلمي في التأنيث {تَخَذْتُ}

من المعلوم أن الفعل في العربية تلحقه (تاء) التأنيث إذا كان الفاعل أو نائب الفاعل مؤنثاً كما في تأنيث الفعل (قالت) في قوله تعالى سَمَحَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ⁽²⁾، وإن تأنيث الفعل (اتخذت) جعل علماء اللغة يحكمون بتأنيث لفظ (العنكبوت)؛ لأن الأفعال في العربية يجب تأنيثها -في إحدى حالاته- إذا كان الفاعل أو نائبه ضميراً مستتراً يعود على مؤنث حقيقي أو مجازي⁽³⁾، و(العنكبوت) مؤنث حقيقي بحكم كلام العرب⁽¹⁾؛ لأنها تبيض في كيس حريري كما أسلفنا.

(1) من آيات الإعجاز العلمي "الحيوان في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، ص 143-144.

(2) سورة النمل: آية 18.

(3) ينظر: النحو الوافي، عباس حسن (ت: 1398هـ)، دار المعارف، ط 15، (د.ت)، 83/2.

وإن في الحكم بتأنيثها لإعجازا علميا مبهرًا بليغًا؛ إذ جاء انعكاسا واقعيًا وعلميًا لما وصلت إليه الأبحاث العلمية الحديثة في علم الأحياء، وهو "أن الأنثى تقوم ببناء الشبكة في معظم أنواع العناكب الناصجة للشباك، بينما الذكر غالبًا لا يبني شبكة لاصطياد الفرائس، بل قد يتجول بحثًا عن الأنثى أو يستخدم شبكتها عند التزاوج، ولذلك يرى أصحاب هذا التفسير أن تأنيث الفعل ("اتخذت") جاء مطابقًا للواقع البيولوجي؛ إذ تحمل الأنثى في جسدها عدد إفراس المادة الحريرية التي تُنسج منها الخيوط، وإن اشترك الذكر في بعض الأحيان في عملية المساعدة في البناء أو الترميم أو التوسعة فإن العملية تبقى أنثوية محضة -وصدق الله العظيم-؛ كما يؤكد علماء الأحياء أن هذا الوصف ينطبق تمامًا على معظم العناكب التي تنسج الشباك، وليس على جميع أنواع العناكب، إذ توجد أنواع لا تبني شبكات أصلًا⁽²⁾.

فضلا عن ملمح بلاغي آخر -وهو كتاب لا تنقضي عجائبه- في قوله تعالى نفسه **سَمَحَ اتَّخَذَتْ بَيْتًا**، ولم يقل: (بنت بيتًا، أو نسجت بيتًا) -كما يقتضيه ظاهر اللفظ- وذلك لأن "اتَّخَذَ" لا يقال إلا في الشيء المصطفى المحبوب؛ قال تعالى **سَمَحَ واتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا**⁽³⁾، وقال تعالى **سَمَحَ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا**⁽⁴⁾؛ فالاتخاذ إنما هو اقتناء واجتباء، وهو افتعال من الأخذ؛ فإذا قلت: اتخذت كذا، فمعناه: اصطفتيه لنفسي، واخترته لها؛ فضلا عما يحمله الفعل من معنى الدوام والاستمرار؛ كما في آية العنكبوت، وفي قوله تعالى **سَمَحَ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ**⁽⁵⁾؛ فاتخاذ النحل الجبال والشجر بيوتا صارت له دائما وأبدا، وغدت ناموسا له في الحياة⁽⁶⁾.

ولعل في استعمال هذا الفعل دون غيره نجد فيه رائحة السخرية والاستهزاء من حماقة تلك الحشرة وطيشها، إذ اصطفت بيتًا بتلك المواصفات الواهية الواهنة؛ بيتًا لا يحمي ولا ينجي؛ بيتًا خربا لا دوام له ولا استقرار، بيتًا مفككا لا روابط فيه ولا عائلة، والكلام هنا أراه يخرج مخرج المثل العربي الشهير "إياك أعني واسمعي يا جارة"⁽⁷⁾؛ فالكلام في أصله موجه لمن أشركوا مع الله آلهة أخرى، وركنوا إليها مطمئنين، وبها واثقين، ولها مخلصين، وعليها معتمدين.

المطلب الثاني

الخواص الفيزيائية والميكانيكية لخيوط العنكبوت

شبكة العنكبوت هي عبارة عن مجموعة من الخيوط الحريرية التي تنسجها العنكبوت بشكل هندسي مذهل، وهذا الخيط رغم رقيقته وشفافيته يُعدّ من أصلب الألياف الطبيعية على الإطلاق، حتى أن البعض أطلق عليها اسم (الفلولان البيولوجي)، وينسج العنكبوت هذا الخيط الحريري بواسطة مغازل ثلاثة أسفل بطنها تتصل ببغدد صغيرة، وهي التي تفرز المادة التي تكون هذه الخيوط؛ شبكة العنكبوت هي تشكيل هندسي متناسق في المسافات والانحناءات تنسجها العنكبوت لاصطياد فريستها؛ حيث تقوم العنكبوت بوضع المادة اللاصقة على الشبكة من الخارج والداخل بحيث تترك لنفسها مساراً لتسير فيه بسهولة، وحتى وإن حدثت وقامت بالسير على مكان يوجد فيه غراء، فإنها تذيبه بزيت خاص يفرزه جسمها لتحرر نفسها دون أية مشاكل، وبعدما تنتهي من تجهيز فخها المميت، تقيم لها عشاءاً من الخيوط بالجوار لتراقب

الموقف عن كثب في انتظار قد يطول أحياناً، وبما أنها ضعيفة الرؤية فقد تلجأ إلى خيط إنذار يرتبط بعشها الحريري حيث يصدر ارتطام أي حشرة في مصيدتها اهتزازاً تستشعر به بالتأكد عن طريق هذا الخيط لتأتي على

(1) ينظر: المصدر السابق نفسه، 78/2.

(2) من آيات الإعجاز العلمي "الحيوان في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، ص 141.

(3) سورة النساء: آية 125.

(4) سورة الفرقان: آية 27.

(5) سورة النحل: آية 68.

(6) ينظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، 58/2.

(7) مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (ت: ٥١٨هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد

الحميد (ت: ١٣٩٢هـ)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 49/1.

الفور، وتلف فريستها بالخيوط حتى تنهك تماماً وهي تحاول الفكك من الشرك دون فائدة، ثم تحقق فريستها بسم يشلها وتحقق لعبها في الفريسة لتذيب أعضائها الداخلية ومن ثم تتناول وجبتها طازجة وتترك الهيكل الخارجي⁽¹⁾.

إن خيوط بيت العنكبوت حريرية دقيقة جداً، يبلغ سمك الواحدة منها في المتوسط واحداً من المليون من البوصة المربعة، أو جزءاً من أربعة آلاف جزء من سمك الشعرة العادية في رأس الإنسان، وهي على الرغم من دقتها الشديدة، فهي أقوى مادة بيولوجية عرفها الإنسان حتى الآن، لدرجة أن الجيش الأمريكي يصنع منها ملابس مضادة للانفجارات، وتعتبر الخصلات الحريرية التي تكون نسيج العنكبوت، أقوى من الفولاذ، ولا يفوقها قوة سوى الكوارتز المصهور، ويتمدد الخيط الرفيع منه إلى خمسة أضعاف طوله قبل أن ينقطع، ولذلك أطلق العلماء عليه اسم (الفولاذ الحيوي)، أو (الفولاذ البيولوجي)، أو (الببوصلب)؛ وهو أقوى من الفولاذ المعدني العادي بعشرين مرة، ومن الألمنيوم 29 مرة وتبلغ قوة احتماله 300.000 رطلاً للبوصة المربعة؛ فإذا قدر جدلاً وجود حبل سميك بحجم إصبع الإبهام من خيوط العنكبوت، فيمكنه حمل طائرة "جامبو" بكل سهولة؛ لقد صنع العلماء خيطاً من الحديد الصلب في مثل سمك خيط بيت العنكبوت، وجربوه في شؤون الهندسة بما يسمى (قوة تحمل الشد)، فوجدوا أنه ليس هناك مقارنة بين قوة خيط بيت العنكبوت وخيط الحديد الصلب بنفس السماكة، بل على العكس وجدوا أن خيط بيت العنكبوت يتحمل قوة الشد أضعاف المرات ما يتحمله خيط الحديد الصلب، بمعنى أن خيط الحديد الصلب انقطع في مراحل مبكرة قبل خيط العنكبوت في هذا الاختبار العلمي، وقد أثبت العلم الحديث أن بيت العنكبوت أقوى من بيت الحديد الصلب؛ فقد نجحت شركة كندية في استنساخ الطبيعة من خلال إنتاج خيوط العنكبوت الحريرية، وهي مادة تبلغ قوتها ومتانتها خمسة أضعاف متانة وقوة الفولاذ إذا ما قورنت وزناً بوزن⁽²⁾.

تتميز خيوط العنكبوت بعدة خصائص نجملها في الآتي طبقاً للدراسات العلمية والفيزيائية الحديثة:

أولاً: مقاومة الشد (Tensile Strength) :

تُقارن خيوط العنكبوت من حيث مقاومة الشد بالفولاذ عالي المتانة؛ فكل من حرير العنكبوت يمتلك مقاومة شد تُقدَّر بنحو 1.3 جيجا باسكال (GPa)، في حين تبلغ مقاومة الشد لكل ممائل من الفولاذ نحو 1.65 جيجا باسكال، وتُقارن مقاومة الشد لحرير العنكبوت بتلك للفولاذ عالي المتانة؛ حيث تبلغ مقاومة شد كبل من حرير العنكبوت حوالي 1.3 جيجا باسكال مقابل 1.65 جيجا باسكال لكل ممائل من الفولاذ⁽³⁾.

ثانياً: نسبة القوة إلى الكثافة (الوزن النوعي)

رغم أن الرقم المطلق لمقاومة الفولاذ أعلى فإن حرير العنكبوت أقل كثافة بكثير من الفولاذ، ما يجعل نسبة مقاومة الشد إلى الكثافة أكبر بنحو خمسة أضعاف مقارنة بالفولاذ، وهو في ذلك يقارب ألياف الأراميد الصناعية؛ مثل: الكيفلار؛ إذ إن حرير العنكبوت أقل كثافة من الفولاذ، ونسبة مقاومة الشد إلى الكثافة أكبر بخمس أضعاف منها للفولاذ، ما يعني أن حرير العنكبوت أقوى بخمس أضعاف بنفس الوزن من الفولاذ، فهو بقوة ألياف الأراميد كالكيفلار⁽⁴⁾.

ثالثاً: المرونة (Elasticity)

وبناء على ذلك فإن خيط العنكبوت يوصف بأنه أقرب إلى المطاط في مرونته ما يمكنه من امتصاص الصدمات دون أن ينكسر، وتلك خاصية نادرة الاجتماع في المواد الطبيعية أو الصناعية؛ إذ يردّد العلماء أن حرير العنكبوت أقوى من الفولاذ نسبة إلى وزنه، وأقرب إلى المطاط في مرونته، وتختلف هذه الخصائص الميكانيكية

(1) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، يوسف الحاج أحمد، مكتبة ابن حجر، دمشق، ط2، 1424هـ-2003م، ص501، وينظر: موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية، آيات الله في الأفاق، د. محمد راتب النابلسي، (د. ط)، (د. ت)، ص190-191.

(2) مقال بعنوان "أقوى مادة بيولوجية عرفها الإنسان حتى الآن"، د. محمد السقا عيد، مجلة حراء، العدد: 103، بتاريخ: 2017/7/12م، وينظر: الموسوعة الميسرة في الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة، جمع وترتيب: شحاتة صقر، دار الخلفاء الراشدين، دار الفتح الإسلامي، الإسكندرية، مصر، (د. ط)، (د. ت)، ص697.

(3) مقال بعنوان "أقوى مادة بيولوجية عرفها الإنسان"، د. محمد السقا عيد، مجلة حراء، ع: 103، بتاريخ: 2017/7/12م.

(4) ينظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 1428هـ-2007م، 417/2.

باختلاف ترتيب الجزيئات داخل الخيط، كما تتأثر بعوامل الرطوبة ودرجة الحرارة المحيطة، ويُستخدم "معامل يونغ"⁽¹⁾ لقياس مدى مقاومة الخيط للتشوه عند تعرضه للشد.

رابعاً: البنية الجزيئية الكامنة وراء هذه الخواص:

كشفت دراسات علمية حديثة عن السر الجزيئي الذي يمنح الخيط هذا الأداء المزدوج (القوة+المرونة)، حيث تتحول المادة السائلة اللزجة المخزنة في غدد الحرير (المعروفة بـ"المخدر") إلى خيط صلب خلال أجزاء من الثانية عبر تفاعلات كيميائية وفيزيائية دقيقة داخل قناة المغزل⁽³⁾.

المطلب الثالث

المنظومة الاجتماعية والأسرية للعناكب

تتسم طبيعة الحياة الأسرية والاجتماعية في عالم العنكبوت بخصائص غريبة، وسمات مثيرة للاندھااش والتعجب والنفور عند أولي النهي والألياب، وتتلخص تلك الخواص في الآتي:

أولاً: الطبيعة الفردية الانعزالية:

فعالم العنكبوت لا يعرف الحياة الجماعية خلافاً للنحل والنمل اللذين يعيشان في مجتمعات منظمة ومستعمرات متكافئة؛ فالعنكبوت كائن انفرادي بطبعه، فلا يوجد عش يقطنه أكثر من عنكبوت واحد؛ على عكس ما في أعشاش أغلب الحيوانات والحشرات الاجتماعية الأخرى؛ فالأسرة في عالم العنكبوت لا تستمر إلا لبعض الدقائق في وقت التزاوج فقط، ثم يلوذ بالفرار مُقسماً ألا يعود أبداً إن كتبت له النجاة والحياة أصلاً؛ لأن زوجه الكريم كانت قد أعدت له مفاجأة لا ولن ينساها أبداً⁽⁴⁾.

ثانياً: السلوك الافتراضي الأسري:

حيث كشفت دراسة أجراها باحثون في جامعة هامبورغ الألمانية أن أنثى العنكبوت تلجأ إلى قتل الذكر والتهامه بعد عملية التزاوج مباشرة، وأن هذا السلوك ليس عبثاً أو قسوة عارضة، بل هدفه الحصول على الغذاء اللازم لبويضاتها المستقبلية، بما يمكنها من إنجاب صغار أكثر صحة وقوة، ولتأكيد هذه النتيجة قسم الباحثون عدداً من إناث العناكب إلى ثلاث مجموعات وزوجوا كلاً منها بذكر واحد أو اثنين أو ثلاثة، وقارنوا أثر ذلك على صحة الصغار الناتجة⁽⁵⁾.

وفي المقابل، رصد فريق من العلماء الصينيين أن ذكور بعض أنواع العناكب (مثل نوع "فيلوبونيل برومينس") قد طورت سلوكاً دفاعياً للهروب فور انتهاء التزاوج تجنباً لافتراس الأنثى له، مستخدمة اثنتين من أرجلها للاندفاع بعيداً في جزء من الثانية⁽⁶⁾.

ثالثاً: غياب الرعاية الأسرية:

لا يشارك ذكر العنكبوت في الغالب في رعاية الصغار بعد التزاوج، إذ إنه إما يُفترس فور انتهاء العملية أو يهرب بعيداً عن "البيت"، فتبقى الأنثى (إن بقيت) هي المسؤولة الوحيدة عن البيوضات، دون وجود منظومة أسرية متكاملة تجمع الأبوين والصغار كما في الكثير من الأنواع الحيوانية الأخرى.

(1) هو المقياس الفيزيائي لمقاومة الجسم الجامد للتغير في الطول، ويستخدم هنا لتحديد مدى مقاومة هذه الألياف للتشوه عند تعرضها للشد. ينظر: الفيزياء للعلماء والمهندسين، ريتشارد سيرووي، وأخران، ترجمة: د. محمد محمود عمار، وأخران، دار المزيخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية-الجيزة، مصر، (د. ط)، 1429هـ-2008م، 496/1.

(2) ينظر: معجزة العنكبوت، هارون يحيى، (د. ط)، (د. ت)، ص 69.

(3) ينظر: الجزيئات، مقدمة قصصية جداً، فيليب بول، ترجمة: محمد عبد الرحمن إسماعيل، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط1، 2016م، ص 62، 66.

(4) ينظر: الموسوعة الميسرة في الإعجاز العلمي، شحاتة صقر، ص 698.

(5) Seiter, M., & Hörweg, C., The whip spider collection (Arachnida, Amblypygi) held in the Natural History Museum Vienna, Austria, Arachnologische, Mitteilungen, November 2013, PP.11-27.

(6) Coiddington, J.A., & Others, "Arachnida", in: Crafat, J., & MJ Donoghue, MJ., (Eds), Assembling the tree of life, Oxford, 2004, PP. 22-31.

رابعاً: التركيبة الاجتماعية الهشة عموماً:

يخلص الباحثون في هذا المجال إلى أن بيت العنكبوت لا يمثل وحدة اجتماعية أو أسرية متماسكة بالمعنى المعروف عند الكائنات الأخرى، بل هو في جوهره مكان عابر وهش من الناحية الاجتماعية، تحكمه علاقات الافتراس والانعزال أكثر مما تحكمه علاقات الرعاية والتكافل.

المبحث الثالث

أوجه الإعجاز والترابط بين النص والعلم

المطلب الأول: حقيقة "الوهن" في المنظورين التفسيري والعلمي

أولاً: الوهن التفسيري:

حيث نظر المفسرون القدامى إلى أن الوهن المراد في قوله تعالى سمح وإن أوهن البُيُوتُ لُبَيْتُ الْعُنْكَبُوتِ هو الوهن اللغوي الحسي المادي - إذ لم لديهم من علوم الأحياء ما يتوصلون به إلى الوهن المعنوي الأسري والاجتماعي- وقد رأينا ذلك في تفسيرهم في مطلب فائت نجد به الذكرى في قول ابن عطية: "شبه تعالى الكفار في عبادتهم الأصنام وبنائهم جميع أمورهم على ذلك بالعنكبوت التي تبني وتجتهد وأمرها كله ضعيف متى مسته أدنى هابة أذهبتة فكذا أمر أولئك وسعيهم مضمحل لا قوة له ولا معتمد"⁽¹⁾، وقال أبو السعود: "حيث لا يرى شئ يدانيه في الوهن والوهى"⁽²⁾، وقال: "(كَمَثَلِ الْعُنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بُيُوتًا) تعتمد عليه وتحسب أنه لها بيتاً (وإن أوهن البُيُوتُ لُبَيْتُ الْعُنْكَبُوتِ) لا بيت أضعف من بيتها مما يتخذها الهوام لا يدفع حرّاً ولا برداً، ولا يحجب عن الأعين"⁽³⁾، فبيت العنكبوت -من الناحية المادية- بيت ليس فيه إلا الاسم فقط؛ يقال: عنه بيت، وليس فيه من صفات البيوت ومزاياها شيء؛ وفضلاً عما سبق فهو لا يقي أشعة شمس، ولا غائلة أعداء، ولا يحقق راحة، ولا يشعر بسكينة ولا اطمئنان؛ حتى أنه لا يستر ما بداخله، وهذا أدنى منافع البيوت.

ثانياً: الوهن العلمي:

ومع ازدهار الحركة العلمية كشفت الأبحاث عن الوهن المعنوي إذ إن الحياة الاجتماعية الأسرية داخل هذا البيت تكاد تكون معدومة، وتقوم على العنف والدموية كما رأينا قبل ذلك من افتراس الأنثى للذكر والغدر به بعد عملية التلقيح مباشرة، ثم تلقى الأم الأنثى المصير نفسه في بعض الفصائل - على يد صغارها، فيقتلون ويلتهمونها، ثم تشتعل الحرب الضروس بين هؤلاء الصغار، ويكون البقاء فيها للأقوى، ويخرجون من تلك المعركة بأواصر متهتكة، وعلاقات متقطعة ونفسية مكتئبة وسلوكيات معوجة، وهكذا تتجدد التجربة من جديد، وهكذا تعيش العناكب.

يقول شحاتة صقر: "فحقيقة أن بيت العنكبوت هو أبعد البيوت عن وصفه، بالأمان والسكينة والطمأنينة، فالأنثى تقتل ذكرها بعد التلقيح وتأكله، والأبناء يأكلون بعضهم بعد الخروج من البيض، ولهذا يعمد الذكر إلى الفرار بجلده بعد أن يلقيح أنثاه.. وتغزل أنثى العنكبوت بيتها ليكون فخاً وكميئاً ومقتلاً لكل حشرة تفكر أن تقترب منه، أو تدخله زائراً كانت أم سائلاً فإنها تقتل وتلتهم، وهذا سرّ هذه المذبحة، والوهن كلمة عربية تعبر عن غاية الجهد والمشقة والمعاناة، وهذا شأن من يلجأ لغير الله ليتخذ منه معيئاً ونصيراً"⁽⁴⁾.

(1) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت: 542هـ)، تج: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، 318/4.

(2) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: 982هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ط)، (د. ت)، 41/7.

(3) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني الإيجي (ت: 905هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ-2004م، 281/3.

(4) الموسوعة الميسرة في الإعجاز العلمي، شحاتة صقر، ص698.

المطلب الثاني وجه التشابه بين متخذي الأولياء وبيت العنكبوت اجتماعياً ومادياً

أولاً: وجه التشابه المادي:

يتمثل وجه التشابه المادي بين متخذي الأولياء من دون الله وبيت العنكبوت في الآتي:
فكلاهما لا ينتفع به صاحبه بعد الجد والاجتهاد والإجهد والنصب في الإرضاء والطاعة، ومحاولة الاسترضاء، والامتنال لطاعتهم؛ وعند الكرب والضيق يظنون أنهم يلجئون إلى حصن منيع، ومقل حصين، ملاذ أمين، مأمّن حكيم، أو درع صلب إلا أنه في الحقيقة ملجأ مخدوع فيه بشكله الظاهري البديع، وبنائه المغري المنيف، وسوره القوي المتين؛ لكنه لا شيء عند أول اختبار حقيقي، هواء عند بداية الصدام؛ إذ يتهاوى سريعاً أمام قوة الإيمان، وبأس الحق.

يقول سيد قطب: "وينسون أن الالتجاء إلى تلك القوى سواء كانت في أيدي الأفراد، أو الجماعات، أو الدول كالتجاء العنكبوت إلى بيت العنكبوت؛ حشرة ضعيفة رخوة واهنة لا حماية لها من تكوينها الرخو، ولا وقاية لها من بيتها الواهن، وليس هنالك إلا حماية الله، وإلا حماه، وإلا ركنه القوي الركين؛ هذه الحقيقة الضخمة هي التي عني القرآن بتقريرها في نفوس الفئة المؤمنة، فكانت بها أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقها، وداست بها على كبرياء الجبابرة في الأرض، ودكت بها المعازل والحصون"⁽¹⁾.

فالكفار بذلوا الغالي والنفيس في سبيل إرضاء آلتهم بغض النظر عن أشكالها من شيطان، أو أصنام، أو أشخاص، أو أهواء، أو أموال، أو نزعات، أو غير ذلك مما يقدره الإنسان الغافل، ويقدمه على الاستسلام لله، والخضوع له، وطاعة رسله، والاقتران بأنبياؤه، وتنفيذ شرعه؛ يعتمدون على تلك الآلهة واثقين فيها، ظانين أنها لهم منجاة، يحتمون بها، وينتظرون منها النصرة والمعونة، ولكن هذه القوى الدونية الأرضية، مهما بدت متماسكة، وظهرت مترابطة، وواجهت الحق مترابطة؛ إلا أنها سرعان ما تنمزق وتتهاوى وتنهار فور نزول القدر الإلهي، وصدور الأمر الرباني بالباس والنكال بهم، وتتكشف المواجهة عن انكسارهم واندحارهم، أو هلاكهم وزوالهم؛ كأن لم يغنوا فيها، وصدق الله إذ يقول **سَمِحَ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبَابٍ**⁽²⁾.

وصفوة القول: أن الولي المتخذ من دون الله قد يكون عظيماً في ظاهره، مهيباً في مظهره، لكن حصيلة الاعتماد عليه لا شيء، ولا جدوى منها على الإطلاق؛ كما أن حصيلة نسج الخيوط القوية بيت كعدمه، بيت لا يُغني ولا يحمي؛ فالمشكلة في الأساس ليست في مادة الاعتماد، وإنما في جوهر العلاقة القائمة على الاتكال على غير الله، والثقة فيما دونه.

ثانياً: وجه التشابه المعنوي الاجتماعي:

وجه التشابه المادي يمكن أن نطلق عليه البعد السطحي؛ أما المعنوي فهو البعد الأعماق الذي يتعلق بطبيعة العلاقات الباطنة القائمة داخل المنظومتين؛ إذ لا مودة حقيقية، ولا حب خالص بينهما، وإنما تحكمهما المصلحة المؤقتة التي تنتهي بانقضائها، ثم الغدر والخيانة.

ففي بيت العنكبوت تقوم العلاقات الأسرية فيه على المصلحة البحتة، وبا لبيتها مصلحة تستحق هذا التطاحن وتلك التضحيات، وإنما التقاتل على الطعام الذي يُستطاع الصبر عليه، وبذل القليل من الجهد لتحصيله، فيحدث القتل، وتخلص الأفراد من بعضهم؛ فالأنثى تقتل الذكر بعد التلقيح، والأبناء يأكلون أمهم بعد الفقس، والإخوة يقتتلون ويقضي قواهم على ضعيفهم؛ بثست الحياة حياة هذا سلوك أفرادها؛ إنه بيت مبني على الأنانية، قائم على الغدر بين أقرب الأقربين.

أما عند متخذي الأولياء فتقوم علاقات أهل الباطل مع أوليائهم على تبادل المصالح الدنية، والأطماع الفانية، وما إن يقع خلاف، أو تجيء أزمة، أو ينزل بلاء، أو تحل قارعة، حتى تتحول هذه الولايات إلى تبرؤات متبادلة،

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب، 2736/5.

(2) سورة هود: من الآية 101.

وعداوات دامية، ومعارك شرسة، كما قال إبليس اللعين لمشركي مكة وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ الْفَتَنَازَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي مَا لِي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ⁽¹⁾، ويوم القيامة يتبرأ إبليس من كل أتباعه دفعة واحدة، وذلك في قول الله تعالى وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ⁽²⁾، وقال تعالى على لسان إبراهيم (عليه السلام) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمُ بَعْضًا⁽³⁾.

يقول سيد قطب: "ثم يكشف لهم عن صفحتهم في الآخرة؛ فإذا المودة التي يخشون أن يمسوها بالخلاف على العقيدة، والتي يبقون على عبادة الأوثان محافظة عليها؛ إذا هي يوم القيامة عدا ولعن وانقسام سمحتم يوم القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمُ بَعْضًا⁽⁴⁾؛ يوم يتنكر التابعون للمتبعين، ويكفر الأولياء بالأولياء، ويتهتم كل فريق صاحبه أنه أضله، ويلعن كل غوي صاحبه الذي أغواه! ثم لا يجدي ذلك الكفر والتلاعن شيئاً، ولا يدفع عن أحد عذاباً"⁽⁵⁾.

فضلاً عن أن هؤلاء الأولياء المتخذين من دون الله لا يحققون الوظيفة التي أُتخذوا آلهة من أجلها، ولا يلبثون الأمانى التي غلبوا من أجلها؛ كالرزق، أو النصر، أو دفع المضرة، أو الزلفى إلى الله تعالى، والحسرة الكبرى والندامة العظمى عندما تحشر تلك الآلهة مع عابديها في نار جهنم يوم القيامة؛ يقول الله تعالى عن ذلك إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ⁽⁶⁾؛ فما أعظمها من حسرة! وما أشدها من ندامة! وما أكله من عذاب! وصفوة القول قول الله تعالى لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَرْعُمُونَ⁽⁷⁾.

المطلب الثالث

الأبعاد التربوية والعقدية المستفادة من المثل

أولاً: البعد العقدي:

يتمثل هذا البعد العقدي في قضية الولاء والبراء، ومن مظاهر ذلك في الآية الكريمة:

1- إفراد الله تعالى بالاعتماد والولاية: عبر تثبيت قلب المسلم، وترسيخ العلم اليقيني في وجدانه بأن القادر والنافع والصار هو الله وحده لا سواه، وأن الاعتماد على الأسباب المادية المقطوعة عن مسببها -وهو الله- بناءً لبیت وإه كبيت العنكبوت؛ يقول السعدي: "فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذها إلا ضعفاً؛ كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء، فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستصرونهم، ازدادوا ضعفاً إلى ضعفهم، ووهنا إلى وهنهم" ولذا وجب التوكل على القوين المتين⁽⁸⁾.

2- بطلان الشرك: فكل من يعتمد على غير الله غافل ضال ضلال العنكبوت التي بنت بيتاً خيوطه من أقوى الخيوط بيد أنه من أضعف البيوت؛ إذ ليس فيه إلا اسمه؛ فهو إلى العراء أقرب، وإلى الخلاء أدنى؛ يقول ابن القيم: "المثل يدل على أن من اتخذ من دون الله ولياً يتعزز به، ويتكثر به، ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد

(1) سورة الأنفال: آية 48.

(2) سورة إبراهيم: آية 22.

(3) سورة العنكبوت: آية 25.

(4) سورة العنكبوت: آية 25.

(5) في ظلال القرآن، سيد قطب، 273/2.

(6) سورة الأنبياء: آية 98-99.

(7) سورة الأنعام: آية 94.

(8) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت: 1376هـ)، تج: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ-2000م، ص631.

مقصوده، وفي القرآن أكثر من ذلك، وهذا من أحسن الأمثال وأدلهها على بطلان الشرك، وخسارة صاحبه، وحصوله على ضد مقصوده؛ فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت، فكيف نفى عنهم علم ذلك بقوله سمحوا كأنوا يعلمون؟ فالجواب أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت، وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتاً؛ فلو علموا ذلك لما فعلوه⁽¹⁾.

3- السخرية والاستهزاء من المعبودات من دون الله، وتبكيك أوليائها: فالمثل إذ شبه الضالين عن الحق - ساخرا منهم- بأردأ أنواع الحشرات (العنكبوت)، وشبه كل المعبودات من دون الله بأوهن البيوت (بيت العنكبوت)؛ فإنه يمنح المؤمنين استعلاءً إيمانياً، وعلوً مقامياً، وثقة راسخة لا فكاك لها؛ فعندما يرى الموجدون انتفاش الباطل، وعلو صوته، وتضخم قوته، وشدة تشابك مصالحه يضعون نصب أعينهم بيت العنكبوت، ويتذكرونه دائماً، وساعتئذ يهون أمامهم هذا الصرح الشامخ، ويدركون أنه هش زائل أمام قدرة الله؛ يقول ابن عاشور: "وهذه الجملة تجري مجرى المثل فيضرب لقلّة جدوى شيء فاقضى ذلك أن الأديان التي يعبد أهلها غير الله هي أخقر الديانات وأبعدها عن الخير والرشد وإن كانت متفاوتة فيما يعرض لتلك العبادات من الضلالات؛ كما تتفاوت ثبوت العنكبوت في غلظها بحسب تفاوت الدويبات التي تنسجها في القوة والضعف"⁽²⁾.

4- إثبات حكمة الله علمه في ضرب الأمثال: فقد ربطت الآية الكريمة بين ضرب المثل والعلم والعقل سمح وتلك الأمثال نضرُها للناس وما يعقلها إلا العالمون⁽³⁾، وإن هذا ليؤكد أن إدراك عمق العقيدة يتطلب عقلاً متدبراً، وقلبا متفتحا، وروحا شفافا تبحث في أسرار الخلق وآيات الحق لتزداد إيمانا ويقينا.

ثانيا: البعد التربوي:

يتمثل هذا البعد التربوي لهذا المثل القرآني البليغ في عدة مظاهر:

1- التربية على اليقظة والحيلة والحذر: ويتمثل ذلك في أمرين: الأول: خيط العنكبوت: فهو في نفسه قوي، ويسمونه (الفلاذ البيولوجي)؛ لكن المحصلة النهائية لما صُنِع منه أنه بيت واهٍ؛ والثاني: العنكبوت نفسها: إذ أغرت الذكر بالدخول إلى عشاها، وزيّت له تلقيحها، ثم تنقض عليه بعد إشباع رغبتها بافتراسه والقضاء عليه، وهذا يتعلم منه المسلمون ألا يطيعوا أهل الهوى والفساد، وألا يركنوا إليهم؛ لأن مصيرهم سيكون مصير العنكب؛ الخلاص منه، والقضاء عليه، وأدناها التخلي عنه وعدم نصرته؛ يقول القاسمي: "وهو إما تشبيه مركب من الهيئة المنتزعة، فمدار قطب التمثيل على أن أولياءهم بمنزلة نسج العنكبوت في ضعف الحال وعدم الصلاحية للاعتماد، وعلى هذا فقوله: سمح وإن أوهن الثبوت تذييل يعرف الغرض من التشبيه، وقوله سمحوا كأنوا يعلمون يغال في تجهيلهم؛ لأنهم لا يعلمونه مع وضوحه لدى من له أدنى مسكة"⁽⁴⁾.

2- تربية الأسر على المودة والرحمة: بالمفهوم العكسي للمثل الوهن الاجتماعي لبيت العنكبوت القائم على الغدر واقتراس أقرب الأقربين، والمنهج القرآني يربي المسلم على أن البيت الحقيقي الناجح هو الذي يقوم على التقوى، والمودة، والرحمة، والتضحية، وليس على المصالح النفعية المؤقتة التي تنتهي بالافتتال والقطيعة عند أول أزمة؛ كما قال تعالى سمح ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يفتكرون⁽⁵⁾.

3- تنمية التفكير والتأمل في الأمثال القرآنية، واستنباط العبر منها: عبر تحويل الحقائق العقلية والمعاني المجردة إلى صور حسية ملموسة أكثر واقعية وارتباطا بالواقع؛ فالأمثال تحفز العقل على الاستنتاج، وترتبط بين النصوص والواقع؛ فهي تعدّ بحق أداة فعالة لتحفيز التفكير الناقد والتأملي؛ فيه يتعلم الإنسان يهتدي؛ يقول القاسمي: "وتلك الأمثال) يعني هذا المثل ونظائره في التنزيل (نضرُها للناس)؛ أي: ليقرّب ما بعد من أفهامهم؛ فإن الأمثال والتشبيهات طرق تبرز فيها المعاني المختبئة للأفهام (وما يعقلها)؛ أي: يدرك حسناتها وفوائدها (إلا

(1) الأمثال في القرآن الكريم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: 751هـ)، مكتبة الصحابة، طنطا، تح: إبراهيم بن محمد، ط1، 1406هـ - 1986م، ص14.

(2) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 253/20.

(3) سورة العنكبوت: آية 43.

(4) محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت: 1332هـ)، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ، 555/7.

(5) سورة الروم: آية 21.

العالمون؛ أي: الراسخون في العلم الكاملون فيه، وعن عمرو بن مرة قال: ما مررتُ بآيةٍ من كتاب الله لا أعرفها، إلا أحرزني؛ لأني سمعتُ الله تعالى يقول ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾⁽¹⁾.

الخاتمة

أولاً: أهم التوصيات:

- ومن أهم النتائج التي توصل إليها ذاك البحث الموجز ، وتتمثل في الآتي:
- 1- أثبت البحث أن المثل القرآني للعنكبوت يجمع بدقة متناهية بين اللغة البلاغية والدلالة العلمية.
- 2- أظهر البحث أن الدراسات العلمية الحديثة أثبتت أن خيوط العنكبوت تمتاز بقوة شد كبيرة مقارنة بوزنها، وهذا يدل على أن الوهن في الآية يتعلق بوظيفة البيت لا بمتانة الخيط.
- 3- أكد البحث عدم وجود تعارض بين الحقائق العلمية الثابتة والنص القرآني المعجز.
- 4- ثمة تباين بين تفسير المتقدمين والمتأخرين؛ إذ اعتمد الأوائل على التفسير اللغوي فحسب؛ بينما المتأخرون اعتمدوا على التفسير الجامع بين اللغة والعلم معاً، ولذا اتسم التفسير بسمة التدرج.
- 5- المثل القرآني كان أداة فعالة في الإقناع العقلي والتأثير الشعوري، مع قابليته للتجدد عبر الأزمنة.
- 6- خلص البحث إلى أن الأمثال القرآنية تجمع بين الهداية العقدية والإعجاز البياني والإشارات الكونية بما يعزز الإيمان، ويدعو إلى التأمل في خلق الله.
- 7- أكد البحث أن وجه الشبه بين الكفار وأوليائهم وبين العنكبوت وبيته جاء متطابقاً تماماً.
- 8- دحض شبه المستشرقين والطاعنين بالعقل والعلم معاً عبر قوة البيان، وعمق الفكر، وبرهان العلم.
- 9- أظهر البحث ضرورة التحذير من البناء الأسري القائم على الغدر والأنانية.
- 10- أكد البحث على أهمية التدبر العلمي لإدراك عظمة الله في الكون وزيادة اليقين.
- 11- التأكيد على الملازمة الحتمية بين الشرك والجهل، والإيمان والعلم.

ثانياً: أهم التوصيات:

- ومن أهم توصيات هذا البحث الآتي:
- 1- ضرورة تشجيع الدراسات البيئية التي تربط بين علوم القرآن والعلوم الطبيعية، مع الالتزام بالمنهج العلمي والضوابط الشرعية في تفسير الآيات الكونية.
- 2- ضرورة الحذر من المبادرة والإسراع أو التكلف في الربط بين النص القرآني أو النبوي والمكتشفات العلمية المتجددة المتسارعة.
- 3- ضرورة القيام بدراسات مقارنة بين الأمثال الحيوانية في القرآن والكتب السماوية الأخرى.
- 4- ضرورة توظيف نتائج مثل تلك البحوث في المجالات الدعوية والتربوية.
- 5- ضرورة إدراج مثل هذا النوع من الدراسات ضمن مناهج الدراسية في الكليات والمعاهد ترسيخاً للإيمان في القلوب، وتنمية لملكة التأمل والتدبر.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- 1- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: 982هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ط)، (د. ت).
- 2- إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (ت: 1403هـ)، دار الإرشاد للشئون الجامعية-حمص-سورية، (دار اليمامة-دمشق-بيروت)، (دار ابن كثير-دمشق-بيروت)، ط4، 1415هـ.
- 3- الأمثال في القرآن الكريم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: 751هـ)، مكتبة الصحابة، طنطا، تح: إبراهيم بن محمد، ط1، 1406هـ-1986م.

(1) محاسن التأويل، القاسمي، 556/7.

- 4- الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (ت: ٥١٨هـ)، تج: محمد محيي الدين عبد الحميد (ت: ١٣٩٢هـ)، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- 5- بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي (ت: 373هـ)، تج: د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، (د. ط)، (د. ت).
- 6- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت: ٨١٧هـ)، تج: محمد علي النجار، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، (د. ط)، (د. ت).
- 7- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: 1393هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984هـ.
- 8- تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم، د. زغول النجار، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2007م.
- 9- تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني الإيجي (ت: 905هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ-2004م.
- 10- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت: 774هـ)، تج: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ-1999م.
- 11- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت: 1376هـ)، تج: عبد الرحمن بن مغل اللويحي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ-2000م.
- 12- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي (ت: 671هـ)، تج: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ-1964م.
- 13- جمال القراء وكمال الإقراء، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد، علم الدين سخاوي (ت: 643هـ)، تج: عبد الحق عبد الدايم القاضي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1419هـ-1999م.
- 14- حسن المدد في معرفة فن العدد، برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري (ت: 732هـ)، تج: بشير بن حسن الحميري، المدينة المنورة، ط1، 1431هـ.
- 15- شرح المفصل للزمخشري، يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، عُرف بابن يعيش (ت: 643هـ)، تج: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ-2001م.
- 16- في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم (ت: 1966م)، دار الشروق، القاهرة، (د. ط)، (د. ت).
- 17- ألفيزياء العلماء والمهندسين"، ريتشارد سيروني، وآخران، تَرْجَمَةُ: د. محمد محمود عمار، وآخران، دار المَرْيَخِ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية-الجيزة، مصر، (د. ط)، 1429هـ-2008م.
- 18- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت: 538هـ)، دار الكتاب العرب، بيروت، (د. ط)، 1407هـ.
- 19- لطائف الإشارات، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: 465هـ)، تج: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط3، (د. ت).
- 20- محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت: 1332هـ)، تج: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ.
- 21- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية (ت: 542هـ)، تج: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ.
- 22- معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو 395هـ)، تج: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، مؤسسة النشر الإسلامي، ط1،
- 23- من آيات الإعجاز العلمي "الحيوان في القرآن الكريم، د. زغول راغب محمد النجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ-2006م.
- 24- من عجائب الخلق في عالم الحشرات، محمد إسماعيل الجاويش، القاهرة، 2012م.
- 25- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، يوسف الحاج أحمد، مكتبة ابن حجر، دمشق، ط2، 1424هـ-2003م، ص501، وينظر: موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية، آيات الله في الأفاق، د. محمد راتب النابلسي، (د. ط)، (د. ت).
- 26- الموسوعة الميسرة في الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة، جمع وترتيب: شحاتة صقر، دار الخلفاء الراشدين، دار الفتح الإسلامي، الإسكندرية، مصر، (د. ط)، (د. ت).

- 27- النحو الوافي، عباس حسن (ت: 1398هـ)، دار المعارف، ط15، (د.ت).
- 28- مقال "أقوى مادة بيولوجية عرفها الإنسان حتى الآن"، د. محمد السقا عيد، مجلة حراء، العدد: 103، بتاريخ: 2017/7/12م.
- 29- مقال العناكب: أنواعها وأسرارها، إبراهيم محمد أنور، مجلة التربية، العدد: 82، 1986م.
- 30- Rahmani, F., & Others, Poisonous Spiders: Bites, Symptoms, and Treatment; an Educational Review, Emergency; 2 (2), 2014.
- 31- Coiddington, J.A., & Others, "Arachnida", in: Crafat, J., & MJ Donoghue, MJ., (Eds), Assembling the tree of life, Oxford, 2004.
- 32- Rahmani, F., & Others, Poisonous Spiders.